المعجم والكلمة؛ المفهوم والتطور الدلالي

الطالبة الباحثة حسناء رمزي

طالبة بسلك الدكتوراه

جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش

المغرب

مقدمة:

تظل المعجمية من أهم الدراسات اللغوية، كونها تُعْنى بالتصنيف المعجمي في مختلف مراحله، نظرا لما يعرفه من تحولات عديدة، عبر مراحل تاريخية وظروف سياقية متباينة. فاللغة دائمة التطور والتنامي، وهي أبرز مظهر لذلك المستوى المعجمي، والكلمة الواحدة قد تحمل معان مختلفة عبر مراحل تطورها، كما يمكن أن تظهر ألفاظ جديدة لم يكن لها وجود سابق إما عن طريق التوليد أو الاقتراض أو غيرهما، كما أن اللغة مرتبطة بمجالات اجتماعية وسياسية وعلمية... وكلما عرفت هذه المجالات نوعا من التطور أو التغير إلا وانعكس ذلك على ألفاظ اللغة وبنياتها المعجمية، وهنا تظهر دينامية اللغة التي ترفض الركون أو الجمود. لذا على التأليف المعجمي أن يواكب هذا التطور، وأن يسخر مختلف الآليات والتقنيات الحديثة لرصد هذه التحولات وإنتاج معاجم حديثة تتناسب ومتطلبات العصر.

وكما هو معلوم فإن جهود علماء العربية منذ عصر التدوين قد أظهرت براعتهم في التأليف المعجمي ما مكننا من ميراث لغوي غني مازال يؤتي أكله حتى زمننا الحالي. وفي هذا المقال سيتم تقريب مفهوم المعجم، مع بيان التطور الاصطلاحي لدلالته. وبما أن المادة الأساس التي ينبني عليها المعجم هي الكلمة، فسيتم الوقوف عند دلالتها، وبيان آراء علماء اللغة تجاهها، والتصور البلاغي الذي يحدد معاييرها وأهم خصائصها.

1- مفهوم المعجم

لتحديد هذا المفهوم سيتم تتبع دلالة جذره في معاجم اللغة، ثم بيان دلالته الاصطلاحية والتطور الذي عرفته عبر الزمن.

***الدلالة المعجمية:**

من خلال البحث في معاجم اللغة التراثية، نقف في 'كتاب العين' للخليل بن أحمد الفراهيدي (173ه) على ما يلي: في (باب العين والجيم والميم) مادة (عجم) نجد: "العجم: ضد العرب، ورجل أعجمي: ليس بعربي.. والأعجم الذي لا يفصح، وامرأة عَجْماءُ بَيِّنَةُ العُجْمَةِ... والمعْجَمُ: حروف الهجاء المقطعة، لأنها أعجمية، وتَعْجيمُ الكتاب: تنقيطه كي تستبين عُجْمَتُهُ ويَصِحُّ...

وعَجَمُ التمرِ: نواهُ... والإنسان يعْجُم التمرةَ إذا لاكها بنواتها في فمه... وعَجَمْتُ العود: عضضت عليه بأسناني أيها أصلب... قال الحجاج بن يوسف (95ه)[1]: 'إن أمير المؤمنين نكب كنانته فعجم عيدانها فوجدني أصلبها' وقوله عجم، أي عض عليها بأسنانه لينظر أيها أصلب، وهذا مثل، أي جَرَّبَ الرجال فاختاري منهم.."[2].

وما يمكن أن نضيفه من ابن منظور (711ه) في 'اللسان' قوله:" وقالوا حروف المعجم، فأضافوا الحروف إلى المعجم... وإنما المعنى أن الحروف هي المعْجَمَةُ... وإنما سميت بذلك لأن الشكل الواحد إذا اختلفت أصواته، فأعجمتَ بعضها وتركتَ بعضها فقد عُلم أن هذا المتروك

[1]- الحجاج بن يوسف الثقفي: قائد سياسي أموي اشتهر بالشدة والقسوة بلاغة الكلام، توفي عام 95ه.

[2]- الخليل بن أحمد الفراهيدي: 'كتاب العين' تح. مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار مكتبة الهلال، بيروت لبان، ج.1، ص.137-138)

بغير إعجام هو غير الذي من عادته أن يعجم... والعجم النقط بالسواد، وحروف المعجم: الحروف المقطعة من سائر حروف الأمم... وكتابٌ مُعْجَمٌ إذا أَعْجَمَهُ كاتِبُه بالنقط سمي مُعجَما"[3].

وفي 'المصباح المنير' للفيومي(770هـ) نجد "...و(اسعجم) الكلام علينا مثل استبهم، و(أعجمت) الحرف بالألف أزلت عجمته بما يميزه عن غيره بنقط وشكل، فالهمزة للسلب..."[4]

يتضح من هذه التحديدات أن مادة (ع ج م) تفيد الإبهام والغموض وانعدام الفصاحة أو البيان، وإذا أدخلت الهمزة على الفعل (عجم) ليصير (أعجم) أخذ الفعل معنى جديدا أفادته الهمزة التي أتت هنا للسلب والنفي، فيفهم من أعجم الحرف أي أزال عجمته وغموضه وإبهامه، لذلك سميت نقط الحروف (الإعجام) لأنها تزيل الغموض والإبهام عن الحروف المتشابهة مثل (ح ج خ).

والملاحظ أيضا في المعاجم التراثية عدم الإشارة إلى دلالة المعجم باعتباره كتابا يضم ألفاظ اللغة ويبين دلالتها، وهو ما نجده مضافا في المعاجم المعاصرة مثل 'المعجم الوجيز' الذي يتضمن ما يلي: "المعجم: كتاب لمفردات اللغة مرتب على حروف الهجاء، جمعه معجمات ومعاجم"[5]، و 'المعجم الوسيط' الذي يعرفه بأنه "ديوان لمفردات اللغة مرتب على حروف المعجم.. وحروف المعجم: حروف الهجاء"[6] ، وبالتالي نفهم أن المعجم سمي بذلك لكونه مرتب على حروف المعجم ولأنه يزيل غموض ألفاظ اللغة وإبهامها بشرحها وبيان دلالتها، "فهو مُعْجَمٌ بمعنى مُزالٌ ما فيه من غموض وإبهام. وقد فهم من هذا أن لفظ (معجم) يعد اسم مفعول من فعل (أعجم)"[7].

*** الدلالة الاصطلاحية وتطورها:**

يدل المعجم اصطلاحا على مصنف أو 'كتاب يحتوي على كلمات منتقاة، ترتب عادة ترتيبا هجائيا، مع شرح لمعانيها ومعلومات أخرى ذات علاقة بها، سواء أعطيت تلك الشروح والمعلومات باللغة ذاتها أم بلغة أخرى'[8]. وتقوم صناعة المعجم على خطوات أساس جردها علي القاسمي في كتابه "صناعة المعجم" كالآتي:

- جمع المعلومات والحقائق
- اختيار المداخل
- ترتيب المداخل طبقا لنظام معين
- كتابة الموارد
- النشر النهائي[9]

ويحدد عبد القادر الجليل الدلالة الاصطلاحية للمعجم بقوله: "والمعجم اصطلاحا: مرجع يشتمل على ضروب ثلاثة:

الأول: وحدات اللغة مفردة أو مركبة

---

[3] ابن منظور: لسان العرب، تح. عامر أحمد حيدر، دار الكتاب العلمية ط.1 لبنان بيروت، 2005، ج.5، مادة (ع ج م)

[4]– الفيومي: المصباح المنير: دار الكتب العلمية، ط.1،بيروت لبنان، 1994م، ج.2، ص395

[5]– المعجم الوجيز: مجمع اللغة العربية، جمهورية مصر العربية، طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، 1994م ص408.

[6]– المعجم الوسيط: مكتبة الشروق الدولية، ط4، 2004، ص. 586.

[7]– أحمد مختار عمر: المعاجم العربية في ضوء الدراسات المعجمية الحديثة، عالم الكتب، مصر، 1998، ص.14

[8]– علي القاسمي: علم اللغة وصناعة المعجم، مطابع جامعة الملك سعود، ط.1، 1991، ص.3.

[9] – نفسه

الثاني: النظام التبويبي

الثالث: الشرح الدلالي"[10] .

وينبه بأن هذه المرتكزات الثلاثة عليها يقوم المعجم بشكله العام من حيث كونه وعاءً يحفظ متن اللغة، وليس نظاما من أنظمتها، بينما يعد المعنى المعجمي جزء من النظام الدلالي العام للغة[11]. لكن عبد القادر الفاسي الفهري يفصح عن تصوره تجاه الخصائص الأساسية للمعجم الجديد فيعتبره نظاما ذهنيا لمواد لغوية متعددة الأبعاد، ترتبط فيما بينها بعلائق صوتية وصرفية ودلالية وتركيبية، وتنعكس في النظام النحوي العام. وهو يجسد المعرفة المعجمية لمتكلم اللسان العربي فطريا أو بالتعلم[12]. ويضيف موضحا أن المعجم ليس لائحة طويلة من المفردات غير منتظمة، بل يتميز المعجم الذهني بتموقعه في الدماغ[13].

وقد تتبع صاحب كتاب 'المعجمية العربية' علي القاسمي مراحل استعمال كلمة (معجم) في المؤلفات العربية، وأكد أنها كلمة استخدمت في وقت متأخر للدلالة على كتاب تُرتب فيه المعلومات بطريقة معينة. وقد استعملت من قِبَلِ علماء الحديث أولا، قبل أن يستخدمها علماء اللغة، فأول كتاب يحمل عنوان (معجم) هو (معجم الصحابة) لأبي يعلى أحمد بن التميمي الموصلي (210هـ/307هـ)[14]. ويقول المحقق في مقدمة هذا الكتاب: "المعجم: أحد أنواع الكتب المصنفة في علوم الحديث، وهو في اصطلاح المحدثين ما تذكر فيه الأحاديث على ترتيب الصحابة أو الشيوخ سواء يعتبر تقدم وفاة الشيخ، أم توافق حروف التهجي، أو الفضيلة أو التقدم في العلم والتقوى. لكن الغالب هو اعتبار الترتيب بحروف الهجاء'[15]. وأشار بعد ذلك إلى أشهر كتب المعجم والمتمثلة في معاجم الطبراني(360هـ) الثلاثة: 'المعجم الكبير' و'المعجم الأوسط' و'المعجم الصغير'، رتبها بحسب ترتيب أسماء شيوخه الذين روى عنهم النصوص المسندة على حروف المعجم[16].

وبخصوص تسمية المعاجم فقد مر المعجم العربي في تطوره بمراحل متعددة حتى بلغ ما هو عليه الآن، لكن لم يطلق عليه اسم (معجم) في جميع تلك المراحل، إذ بدأت المعجمية العربية انطلاقا من عناية المسلمين بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وحرصهم على فهمهما والوقوف على غريبهما، ليظهر أول كتاب في ذلك وهو 'غريب القرآن' لعبد الله بن العباس بن عبد المطلب[17] (68هـ)، الملقب بحبر الأمة، وبترجمان القرآن، ثم تعددت كتب غريب القرآن وغريب الحديث دون أن تحمل تسمية (معجم)[18].

أما المرحلة الثانية فقد شد فيها علماء اللغة الرِّحال إلى البادية لمشافهة الأعراب وجمع المادة المعجمية من مصادرها الأصلية، وتدوينها ثم تصنيفها تصنيفا موضوعيا، وإصدارها في رسائل صغيرة تضم المفردات المتعلقة بخلق الإنسان، وخلق الحيوان، والنبات والحرب والأسلحة... وكانت تلك الرسائل تحمل عنوان (كتاب)؛ مثل: 'كتاب الخيل'، 'كتاب الإبل'، 'كتاب الشتاء'، 'كتاب الحشرات' 'كتاب الطير'... وهي

---

[10]– عبد القادر عبد الجليل: المدارس المعجمية: دراسة في البنية التركيبية؛ دار الصفاء، عمان، ط.2، 2014، ص.33.

[11]– نفسه

[12]– عبد القادر الفاسي الفهري: المعجم العربي البنائي التنوعي؛ دار كنوز المعرفة، الأردن عمان، ط.1، 2022، ص.29

[13]– نفسه

[14]– علي القاسمي: المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق، مكتبة لبنان ناشرون، ط.1، بيروت، 2003، ص.8.

[15] – أبو يعلى أحمد بن التميمي الموصلي (307هـ):المعجم لأبي يعلى؛ تح. إرشاد الحق أثري، مطبعة المكتبة العلمية 1407هـ، ط.1. ص.17.

[16] – أنظر المرجع السابق ص.17.

[17]– ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم

[18]– أنظر المعجمية العربية: ص.8.

بمثابة معاجم مختصة يصنفها عدد غير قليل من أئمة اللغة مثل الكسائي (200ه) والنظر بن شميل (204ه) وقطرب (206ه) وأبي عبيدة (210ه) والأصمعي (216ه)... وهذه التصنيفات لم تحمل أيضا اسم (معجم) بل (كتاب)[19].

المرحلة الثالثة متعلقة بظهور المعاجم المتكاملة، وتؤرخ بظهور 'كتاب العين' للخليل بن أحمد الفراهيدي (100ه/175ه) ، و'كتاب الجيم' لأبي عمر الشيباني (206ه)، يقول عبد القادر عبد الجليل: "تسجل الريادة في ميدان المعاجم اللفظية أو المعاجم المجنسة، إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي(175ه) في العين بعد الشيباني (206ه)في الجيم"[20]. و'البارع في اللغة' لأبي طالب المفضل الضبي (290ه)، و'جمهرة اللغة' لأبي دريد (321ه)... فعلماء هذه المرحلة وما تلاها يفضلون إطلاق اسم عَلم على معجمهم مثل (المحيط، المحكم، العباب، القاموس...).

وأقر الدارس علي القاسمي أنه لا نجد كلمة (معجم) في عناوين مثل هذه التصنيفات إلا أواخر القرن الرابع الهجري وتمثل ذلك في: 'المعجم في بقية الأشياء' لأبي هلال العسكري(395ه)، وقد قال العسكري واصفا كتابه هذا: "...كتاب هذا فهو وإن صغر حجمه فقد كثر نفعه لغَريب ما تضمنه من أسماء بقايا الأشياء، وبديع طريقته في الدلالة على سعة لغة العرب وفضلها على جميع اللغات. وقد نظمت ما ضَمَّنْتُهُ إيَّاه منها على نسق حروف المعجم، فبدأت بما كان أوله همزة، وأتبعته بما كان في أوله الباء، ثم كذلك إلى آخر الحروف"[21]. ويقصد أبو هلال العسكري(395ه) بعبارة 'بقية الأشياء': الأسماء التي تدل على ما تبقى من شيء ما، ومثال ذلك "البَسِيلُ: بقية الشراب تبقى في الإناء، وتبيت فيه..."[22]، و"الحشاشة: بقية النفس"[23].

وفي أواخر القرن الخامس الهجري نجد: 'معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع' لأبي عبيد البكري (487ه)، وهو أيضا معجم مختص[24].

وفي هذا الإطار أثار الكاتب –علي القاسمي– مسألة اعتبار كلمتي (معجم) و(قاموس) مترادفتين، منبها إلى ضرورة عدم تعبير المصطلح الواحد عن أكثر من مفهوم، ولا التعبير عن المفهوم الواحد بأكثر من مصطلح، أي ضرورة التخلص من الترادف والاشتراك اللفظي في المصطلحات[25]. وعند البحث عن الدلالة اللغوية للقاموس نجد في المعجم الوجيز: "(قمس) الشيء في الماء قَمْسا: ألقاه في الماء فغاص. (القاموس): البحر العظيم. والقاموس عَلَمٌ على معجم الفيروزابادي. وهو كل معجم لغوي على التوسع"[26].

نلاحظ من خلال هذا التعريف استحضار الاسم الذي اختاره الفيروزابادي(817ه) لمصنفه اللغوي (القاموس المحيط) ومن خلاله جاز إطلاق كلمة قاموس على كل مصنف يضم ألفاظ اللغة ويعرف بدلالتها.

19– أنظر المرجع السابق ص.9

20– عبد القادر عبد الجليل: المدارس المعجمية؛ دراسة في البنية التركيبية، دار الصفاء للطباعة والنشر، عمان، ط.2 2014، ص. 109

21– أبو هلال العسكري (395ه):المعجم في بقية الأشياء؛ تح. أحمد التواب عوض، دار الفضيلة، ص.63

22– نفسه ص.71

23– نفسه: ص.80

24– أنظر المعجمية العربية: ص.9

25– نفسه: ص.7

26– أنظر المعجم الوجيز: 515

بما أن علي القاسمي متحفظ من قيام علاقة ترادف بين المعجم والقاموس، فقد رصد بعض الفروق نوجزها في كون 'المعجم' يدل على مجموع المفردات المفترضة في اللغة، أو مخزون المفردات الذي يمثل جزءا من قدرة المتكلم/ المستمع اللغوية، بينما 'القاموس' يدل على مجموع المفردات التي يضمها كتاب مع معلومات لغوية أو معرفية عنها، أو مجموع المفردات في كتاب[27].

وفي سياق حديثه على 'مفردات الأمة ومفردات الكِتاب' بين علي القاسمي كيف فرقت البحوث اللغوية بين مفهومين: الأول: 'المجموع المفترض واللا محدود من الألفاظ التي تملكها جماعة لغوية معينة بكامل أفرادها'، وهو ما اصطلح اللسانيون على تسميته بالإنجليزية (lexicon). والمفهوم الثاني: هو 'مجموعة من الألفاظ المختارة المرتبة في كتاب ترتيبا معينا مع معلومات لغوية أو موسوعية عنها'، وهو ما اصطلح عليه بالإنجليزية (dictionary). وعندما واجه اللغويون العرب المعاصرون هذا الفرق بين المفهومين، ارتأى بعضهم الاستفادة من اللفظتين (معجم) و(قاموس) فخص المفهوم الأول بكلمة معجم، والمفهوم الثاني بكلمة قاموس[28]. ويتفق عبد القادر الفاسي الفهري مع هذا الطرح، خلال حديثه عن المعجم باعتباره نظاما ذهنيا – كما سبقت الإشارة– إذ يقول "ويجدر تمييزه عن القاموس، وهو الوصف الخارجي والصناعة التي تُبلور ما هو داخلي. ونفترض أن المعجم الذهني للسان العربي واحد، وقواميس التنوعات العربية متعددة"[29].

ويميز أحمد عزوز بين المعجم والمفردات، فيعتبر المعجم مجموع الكلمات التي تضعها لغة ما في متناول المتكلمين، بينما المفردات هي مجموع الكلمات المستعملة من لدن متكلم معين في ظروف معينة[30]، فيخلص إلى أن "المعجم هو حقيقة اللغة التي يكتسبها الفرد عن طريق معرفة المفردات الخاصة، التي تتوافر على تشكيل الخطاب وبنائه، فالمعجم يتجاوز المفردات، ولكن لا يبلغ إلا بها، ولا تكون المفردات إلا بوجود المعجم لأنها تعد عينة منه"[31].

ومن الدارسين المعاصرين المهتمين بتتبع تطور نشأة المعجم نذكر عبد القادر عبد الجليل، صاحب كتاب: 'المدارس المعجمية؛ دراسة في البنية والتركيب'، وهو عبارة عن دراسة تؤرخ للمعجم العربي، إذ تتبع مراحل تطوره منذ النشأة (125ه) حتى أواخر القرن العشرين (1997م)/ (1417ه)، من خلال محاورة أكثر من عشرين معجما، إضافة إلى رسائل الحقول الدلالية[32]. كما تضمنت الدراسة عرضا لماهية المعجم وأنواعه وأهدافه، ومصادر مادته، ورؤية استشرافية لاستخدام الحاسوب في صناعة المعجم العربي. أما دراسته للبنية التركيبية المعجمية فقد جعلته يصنفها إلى مدارس تتمثل في:

1- مدرسة نظام المخارج التقليبية.

2- مدرسة نظام الأبنية والتدوير الألفبائية

3- مدرسة نظام الألفبائية الأصولية

4- مدرسة نظام التقفية

5- المدرسة المعاصرة، باعتبارها الحلقة الأخيرة من حلقات تاريخ المعجم العربي.[33]

---

[27]- المعجمية العربية: ص.7

[28]- نفسه: ص. 11-12

[29]- المعجم العربي البنائي التنوعي: ص.29

[30] أحمد عزوز: أصول تراثية في نظرية الحقول الدلالية، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق، 2002، ص.9

[31]- نفسه ص.9

[32]- أنظر المدارس المعجمية: ص.19

[33]- أنظر المرجع السابق: ص ص.20/19

وغاية الدارس الوقوف على خصائص مدارس المعجم العربية وأغراضها ومناهجها، مع بيان الفروق الأساسية داخل بنيتها. ويدعو من خلال توصياته إلى ضرورة تأصيل اللغة وفهمها بشقيها السماعي والقياسي، سعيا إلى تحديد هوية الوحدة اللغوية بغية وضع 'المعجم التاريخي للغة العربية' على غرار المعاجم العالمية كمعجم أكسفورد التاريخي.

يتضح مما سبق التطور الذي عرفته الدلالة الاصطلاحية لمفهوم المعجم، والمراحل التي قطعها التصنيف المعجمي العربي منذ عصر التدوين إلى الزمن المعاصر. وبما أن الكلمة هي مدار التأليف المعجمي وغايته، قصد تجميعها وبيان أنواعها وأبنيتها واشتقاقاتها ودلالاتها، فسيتم الوقوف عند مفهومها وأهم الإشكالات المتعلقة بها.

2- مفهوم الكلمة

للكلمة في مجال الدراسات المعجمية أهمية كبرى، كونها تشكل المادة الأساس التي يتم البحث فيها ودراستها، وذلك من خلال رصدها وجردها وتبين دلالاتها وطبيعة العلاقات الرابطة بينها. فهي من أهم المفاهيم التي يمكن التطرق لها في هذا السياق، ولتحديد دلالتها المعجمية نقف عند التحديدات الآتية: نجد في اللسان:"الكلمة تقع على الحرف الواحد من حروف الهجاء، وتقع على لفظة مؤلفة من جماعة الحروف ذات معنى..."[34]، وورد في المعجم الوسيط ما يلي: "هي اللفظة الواحدة، والكلمة عند النحاة: اللفظة الدالة على معنى مفرد بالوضع، سواء أكانت حرفا واحدا، كلامِ الجر، أم أكثر"[35]. وفي تاج العروس:"[الكلمة] بفتح فكسر... اللفظة الواحدة ... وفي اصطلاح النحويين: لفظ وضع لمعنى مفرد، ومن المجاز: الكلمة (القصيدة) بطولها... وفي التهذيب[36] الكلمة تقع على الحرف الواحد من حروف الهجاء، وعلى لفظة مركبة من الحروف ذوات معنى"[37]. ويعرفها الزمخشري(538ه) بقوله: "هي اللفظة الدالة على معنى مفرد بالوضع، وهي جنس تحته ثلاثة أنواع: الاسم، والفعل، والحرف".[38]

يتضح من خلال استقراء هذه التحديدات أن مفهوم الكلمة مرادف لمفهوم اللفظة؛ والتي تحتمل أن تكون اسما أو فعلا أو حرفا. واللفظة من فعل لَفَظَ وتلفّظ، أي نطق بالكلام[39]، و"(التلفظ): تموجات هوائية مصدرها في الغالب الحنجرة تشكلها أعضاء الصوت"[40]، وهذا ما يدل على الجانب الصوتي للكلمة، وكأن التعريفات ركزت على الكلمة المنطوقة، وفي هذا السياق يقول إبراهيم أنيس، مميزا بين اللفظ والكلمة: "أداة الدلالة هي اللفظ أو الكلمة، وتكاد تجمع المعاجم العربية على أن 'الألفاظ' ترادف 'الكلمات' في الاستعمال الشائع المألوف، فلا فرق بين أن يقال أحصينا ألفاظ اللغة، أو كلمات اللغة"[41]، لكن ينبه بأن النحاة يحاولون التفرقة بين كل من اللفظ والكلمة والقول فيستشعرون مع اللفظ عملية النطق وكيفية صدور الصوت، وما يستتبع هذا من حركات اللسان والشفتين، فإذا ربط هذه الأصوات المنطوق بها وما يمكن

---

[34]- اللسان: ج.13 ص.105.

[35]- المعجم الوسيط: ص.796.

[36]- يقصد كتاب التهذيب للعسقلاني (852ه)

[37]- تاج العروس من جواهر القاموس: للزبيدي، تح. إبراهيم الترزي، ط.1، الكويت 2000، ج.33،ص.371.

[38]- شرح المفصل للزمخشري: ابن يعيش الموصلي، قدم له ووضح هوامشه وفهارسه إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1،ج.1، ص.70.

[39]- المعجم الوسيط: ص.832.

[40]- المعجم الوجيز: ص. 560

[41] إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ،، مكتبة للأنجلو المصرية، ط. 2، 1976.ص.38.

أن تدل عليه من معنى تكونت في رأيهم 'الكلمة'، أي أن الكلمة أخص لأنها لفظ دل على معنى[42]. ويمكن أن يعزى ذلك إلى كون الأصل في اللغة العربية أنها لغة شفوية يتلفظ بها، فكان لذلك أثر قوي في فترات التدوين وتحديد المفاهيم.

لكن هذا لم يمنع من العناية بالجانب الدلالي المتجلي في عبارات: (ذات معنى/ الدالة على معنى/ وضع لمعنى مفرد...)، وبالتالي فلا يمكن اعتبار أي لفظة منطوقة أو مكتوبة كلمة إلا إذا تحقق شرط الدلالة والمعنى السليمين. لذا فالكلمة تتشكل من مكونين متلازمين: 'اللفظ والمعنى'

وتجدر الإشارة هنا إلى اهتمام الدارسين المعاصرين بمفهوم الكلمة، إذ منهم من أفرد لها كتابا كاملا مثل خليل حلمي في كتابه: "الكلمة؛ دراسة لغوية معجمية" الذي يهدف، كما أشار في مقدمته، إلى رسم الملامح الدقيقة للكلمة، سواء في اللغة العربية أو غيرها، مع رغبته في التوصل إلى تعريف جامع مانع للكلمة في كل اللغات، و بيان ملامحها بصورة واضحة[43]. ونبه بداية إلى أن "بين الكلمة المنطوقة والمكتوبة وجد علماء اللغة فروقا، وبين الكلمة المفردة والكلمة في تركيب أو سياق وجدوا فروقا أخرى، ومن ثم أخضعوا الكلمة لدراسات صوتية وصرفية ونحوية ودلالية"[44]. وبما أن الكلمة معنى ومبنى فإنه قسم بحثه إلى بابين الأول خصه لبنية الكلمة، والثاني خصه لدلالتها ومعناها.

وفي الفصل الأول من كتابه والذي عنونه أيضا ب [الكلمة] تتبع مفهومها من خلال تعريفات علماء اللغة الغربيين مثل العالم الأمريكي بلومفيلد الذي قال: "الكلمة هي أصغر صيغة حرة"[45]، وترانكا tranka والذي يرى أن الكلمة "وحدة يمكن إدراكها عن طريق الفونيمات phonemes وهي قابلة للإبدال ولها وظيفة دلالية"[46] وفاشيك vachek إذ يقول "هي جزء من الحديث الكلامي له صلة بالواقع الخارج عن اللغة، ويمكن اعتبارها وحدة غير قابلة للتقسيم، ويتغير موضعها بالنسبة لبقية الحديث الكلامي"[47] وغيرهم من اللغويين، فاتضح له أنه بالرغم من تعدد التعريفات إلا أن علماء اللغة وجدوا أن كل تعريف منها غالبا ما يهمل بعض الخصائص اللغوية وغير اللغوية للكلمة[48]، ما حذا به إلى علماء المعجم الذين انطلقوا من وجهة نظر مخالفة مفادها أنهم سلموا "بوجود الكلمات من حيث هي علامات، وهي أيضا جزء من النظام اللغوي لأية لغة كما يستعملها ويدركها المتكلم بهذه اللغة"[49].

بعد ذلك انتقل إلى علماء العربية القدامى محاولا التعرف على تصورهم لماهية الكلمة، بدءا بسيبويه الذي قسم الكلام إلى اسم وفعل وحرف جاء لمعنى[50]، والزمخشري (538ه) الذي يعتبر الكلمة هي اللفظة الدالة على معنى مفرد بالوضع[51]، والسيوطي (911ه) إذ يرى أن

---

[42] – نفسه

[43] خليل حلمي: الكلمة؛ دراسة لغوية معجمية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط.2، 1998، ص.10.

[44] – نفسه: ص.9

[45] – نفسه: ص16

[46] – نفسه: ص.17

[47] – نفسه ص.17

[48] – نفسه ص.17

[49] – نفسه: ص.20

[50] – يمثل سيبويه للكلمة التي على حرف واحد بضمير المتكلم، أو المخاطب، أو الغائب، حيث تبرز فكرة الاستقلال الدلالي كسمة من سمات الكلمة عنده (أنظر المرجع السابق ص. 21)

[51] – ويقصد بالوضع ما تواضع عليه أهل الوضع في اللغة، أم اللفظ الذي لم يضعه الواضع مثل (صص ، كق) فيعد مهملا ولا يسمى كلمة

التعريف الأنسب للكلمة أنها: "قول مفرد أو منوي منه"[52]،[53] ويقصد ب (منوي منه) الضمائر المستترة وجوبا أو جوازا، وقد اختار السيوطي استعمال عبارة (قول) بدل (لفظ) حتى يستبعد المهمل (أي ما لا معنى له) ويخرجه[54]. ثم يخلص خليل حلمي إلى رأي ابن مالك (672ه) صاحب الألفية فيقول عنه أنه "قد لخص موقف النحاة تقريبا من مفهوم الكلمة في ألفيته حين قال:

"كلامنا لفظ مفيد كاستقم اسم وفعل، ثم حرف، الكلم

واحده كلمة والقول عم وكلمة بها الكلام قد يؤم"[55]

فهو هنا يفرق بين مصطلحات أربعة شغلت النحاة، وهي الكلمة والكلم والكلام والقول... ويرى، كما رأى غيره من النحاة، أن للكلمة وجودا مستقلا، ولكنها ذات معنى جزئي، إذ هي وحدة الكلام، وتصوره للعلاقة بين الكلمة والكلام ينبع أساسا من رؤيته النحوية للكلمة دون خصائصها اللغوية"[56].

وبعد استقراء خليل حلمي لآراء علماء اللغة حول الكلمة بدا له أنها حسب تصورهم "عبارة عن صورتين صائت وصامت (متحرك وساكن) أو أكثر.. وتدل على معنى مستقل مفرد، أي أن تصورهم للكلمة يقوم على أصول ثلاثة هي:

1- الصوت

2- الاستقلال

3- الدلالة المفردة أو الجزئية"[57]

أما أصحاب المعاجم العربية القديمة فيلاحظ من خلال الطريقة التي رتبوا بها معاجمهم أنهم

أدركوا تماما جانبين هامين في طبيعة الكلمة وهما الجانب الصوتي والجانب الدلالي. ومن ثم رتبوا معاجمهم تقريبا، إما على اللفظ، وإما على المعنى، وهذا ما يبرر وجود قسمين رئيسيين من المعاجم هما:

1- معاجم الألفاظ؛ والتي ترتب فيها الكلمات وفق اتجاهات ثلاثة: الأولى؛ الترتيب حسب مخارج الحروف ويمثل هذا الاتجاه كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (170ه). والثانية؛ طريقة الترتيب الألفبائي (وهي الأكثر شيوعا كمعجم 'لسان العرب'). والثالثة؛ طريقة الترتيب حسب الأبنية والصيغ (مثال ذلك 'معجم ديوان الأدب' للفرابي 350ه). وقد اعتمد أبنية الكلمات أي صيغها الصرفية مبتدءا ب'كتاب الأسماء من الصحيح'[58]، إذ قال "وأبنية الأسماء —على كثرتها- أولاها بالابتداء ما كان بفتح الفاء وتسكين العين منها، لأنه أخفُّها"[59]. يقصد صيغة (فَعْل) كالتَّرْبُ أي شحم قد غشى الكَرِش والأمعاء رقيقٌ. والثَّقْبُ: واحد الثقوب، والجَدْبُ: نقيض الخصب.[60]

---

[52]- الكلمة: دراسة لغوية معجمية ص. 22

[53]- في طبعة أخرى لكتاب السيوطي نجد: (الكلمة قول مفرد مستقل، وكذا منوي معه على الصحيح): "همه الهوامع في شرح جمع الجوامع" تح. أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ج.1، ص.19

[54]- همع الهوامع: ج1،ص.21

10- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : ابن عقيل (869ه)، دار مصر للطباعة والتوزيع، ط.20، 1980، ج.1، ص.13

[56] - الكلمة: دراسة لغوية معجمية، ص.22

[57]- نفسه: ص.22

[58]- الفرابي 350ه: معجم ديوان الأدب؛ تح. أحمد مختار عمر، مكتبة لسان العرب، ج.1، ص.93

[59]- نفسه

[60] - نفسه

2- معاجم المعاني؛ التي تصنف حسب الموضوعات.[61] (كالمخصص لابن سيدة 398هـ)، والذي يقول عنه صاحبه في مقدمته: "أردت أن أعدل به كتابا أضعه مبوبا حين رأيت ذلك أجدى على الفصيح المِدْرَه والبليغ المفوه والخطيب المِصْقَع والشاعر المجيد المِدْقع، فإنه إذا كانت للمسمى أسماء كثيرة، وللموصوف أوصاف عديدة، تنقى الخطيب والشاعر منها ما شآ واتسعا فيما يحتاجان إليه من سجع أو قافية، على مثال ما نجد نحن في الجواهر المحسوسة كالبساتين تجمع أنواع الرياحين، فإذا دخلها الإنسان أهوت يده إلى ما استحسنته حاستا نظره وشمّه"[62].

ويختم خليل حلمي هذا الفصل ببيان بعض مواقف علماء البلاغة حول مفهوم الكلمة، مركزين على القيم الجمالية والتعبيرية، ويقول "فالكلمة عندهم من حيث هي دالة على معنى، قد تتميز عن غيرها أحيانا، ومن حيث هي صوت فهي ذات قيمة جمالية وتعبيرية، بحيث إذا كانت غير متنافرة الأصوات، أحدثت في الأذن متعة وساعدت على تذوق المعنى وتوصيله، ولها علاوة على ذلك قدرة تعبيرية خاصة إذا كان جرسها يتفق مع ما توحي به من دلالة، وكانت أصواتها سهلة المخرج سلسة اللفظ مطابقة لما تدل عليه"[63] .

ويمكن أن نتتبع مع ابن سنان(466هـ) سمات الكلمة في مجال البلاغة، والأمر يستدعي استحضار مصطلح الفصاحة، وقد ميز بينهما بقوله: "والفرق بين الفصاحة والبلاغة أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني"[64]، فالفصاحة نعت للألفاظ إذا وجدت على شروط عدة قسمها إلى قسمين:

القسم الأول: يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها.

القسم الثاني: يوجد في الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض.

أما القسم الأول فثمانية أشياء:

1- أن يكون التأليف في تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج[65].

2- أن تجد لتأليف اللفظة في السمع حُسْنا ومزية على غيرها[66].

3- أن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية[67].

4- أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية[68].

5- أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة[69].

---

[61]- الكلمة: دراسة لغوية معجمية: أنظر ص ص.23- 24

[62]- ابن سيده: المخصص: تح. خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط.1، ج.1، ص.38.

[63]- الكلمة: دراسة لغوية معجمية:: ص. 26

[64]- سر الفصاحة: ابن سنان الخفاجي (466هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، 1982م، ص.59.

[65]- سر الفصاحة: ص.63.

[66]- نفسه

[67]- نفسه: ص.66.

[68]- نفسه: ص.72.

[69]- نفسه: ص. 77

6- ألا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره[70].

7- أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف[71].

8- أن تكون الكلمة مصغرة في موضع عبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل أو ما يجري مجرى ذلك[72].

هذه هي الأقسام الثمانية التي تبين صفات الكلمة المفردة والتي يمكن نعتها بالفصيحة، وقد فصل فيها ابن سنان الحديث مقدما أمثلة عديدة لكل قسم مبينا مظاهر الاستحسان والقبح، أما ما يخص الألفاظ المنظومة في التأليف فيقول: " إن أحد الأصول في حسنه وضع الألفاظ موضعها حقيقة أو مجازا لا ينكره الاستعمال، ولا يبعد فهمه"[73]. أي تأليف الكلمات وفق تركيب سليم يتناسب مع الاستعمال الذي تقره وقواعد النحو، وقد يكون الكلام حقيقة بأن يدل اللفظ على معناه الظاهر، وقد يكون مجازا عندما يتجاوز اللفظ دلالته الظاهرة إلى دلالة أخرى تفهم من سياق الكلام.

بعد أن تتبع خليل حلمي مختلف المواقف والآراء لعلماء اللغة والنحو والمعجم والبلاغة حول الكلمة اتضح له أن "الأغلبية العظمى من هؤلاء العلماء يستعملون الكلمة ويتحدثون عنها في دراسة اللغة كشيء موجود محدد، له كيان ذو سمات أساسية محددة بعضها يتصل ببنية الكلمة مثل:

1- الجانب الصوتي.

2- الصيغة والوظيفة

3- الاشتقاق

4- النطق والكتابة

وبعضها يتصل بالمعنى مثل:

1- دلالة الكلمة

2- رمزية الكلمة[74]

ليخلص في نهاية الأمر إلى أن الكلمة "معنى ومبنى، لكل منهما سماته وخصائصه التي بها نستطيع أن نتعرف على الكلمات، ولعل محاولة وضع تعريف جامع مانع للكلمة تتراجع أمام الدراسة الدقيقة لهذه الجوانب جميعا"[75]. وبهذا سيعدل خليل حلمي عن محاولة التوصل لتعريف شامل مانع للكلمة، وبدل ذلك سيهتم بدراسة الجوانب الخاصة بالمبنى، والمتمثلة في الصوت والصيغ ووظائفها، والجذر واشتقاقاته، والعلاقة بين النطق والكتابة. والجوانب الخاصة بالمعنى، والمتمثلة في دلالة الكلمة ورمزيتها والمعنى المعجمي، والعلاقات الدلالية ومجالاتها ثم العلاقة بين الدلالة والسياق.

70- نفسه ص.83.

71- نفسه ص.87.

72- نفسه ص. 79

73- نفسه: ص. 111

74 - الكلمة: خليل حلمي، ص.31.

75 - نفسه

خاتمة:

ختاما فلابد من التأكيد على أن الكلمة تعد عنصرا محوريا في اللغة إذ ترتبط بكل مستوياتها الصوتية والصرفية والمعجمية والتركيبية والنحوية والدلالية والرمزية. ولهذا فهي النواة التي يدور حولها الدرس اللغوي واللساني والبلاغي بكل تجلياته، وهي أيضا المادة الخام التي تؤسس لفقه اللغة والدراسات المعجمية قديمة كانت أو حديثة. وقد تبين كيف تعددت الآراء في محاولة تحديد تعريف لها، أو بيان خصائصها وأهم معاييرها، ولكن ما يهمنا أكثر هنا أن الكلمة هي وحدة معجمية شغلت علماء اللغة، وجعلتهم يبذلونا جهودا لجمعها وتصنيفها وتحديد أبنيتها ومختلف الدلالات التي تنضوي تحتها. ويجب أن تستمر هذه الجهود نظرا لكون مفردات اللغة وكلماتها قابلة للتطور والنمو والتوليد من خلال ظواهر لغوية عديدة كالتعريب والاقتراض والنحت والاشتقاق والتطور الدلالي وغيرها. وبالتالي فالتأليف المعجمي ونظريات تصنيفه ستضل متواصلة ما دامت اللغة حية متداولة.